

## عبيد العصا

ذهب ربيعة إلى حجر يحمل إليه عينين فى طبق صغير وهو ظاهر الاضطراب، فنظر حجر إلى العينين نظرة عَجَلَى، ثم أطرق واربدَّ وجهه؛ وبدا عليه ما ينم عن صراع بين كبريائه وعاطفته. وأدرك ربيعة أن الرجل قد ندم على أمره بقتل ولده ونزع عينيه؛ وحمد إلهه «الأقيصر» على أن ألهمه ألا يقتل الفتى، وأوقع الرحمة فى قلبه فأخفاه فى بيت فى واد بعيد، بعد أن جعل فى يديه ورجليه الأصفاذ والقيود، وأقام حوله من بنيه وبنى إخوته حراساً يحرسونه حتى لا يهرب، أو يعرف بعض أصحابه مكانه فيحملوه ويهربوا به. ولما رأى ربيعة أثر الرقة فى وجه مليكه تجرأ وقال له: «أبيت اللعن، هل بك وجد على من قتل الأمير؟».

فلم يلتفت إليه حجر، بل أخذ الطبق وجعل ينظر إلى العينين اللتين وضعتا فيه، وتنفس نفساً عميقاً، وجالت فى عينيه دمة حاول أن يخفيها عن جليسه.

فتأكد ربيعة أن الرجل قد ندم على أمره، وأنه موشك أن يوقع به على التسرع فى قتل ولده، فقال مبادراً: «أيسرك أنى لم أكن قتلته». فرفع حجر إليه رأسه محنقاً، وكاد يرميه بكلمة غاضبة، لولا أن رآه يبسم وهو ناظر إليه، فتردد وداخله الشك فى أمره، وقال بعد لحظة وفى صوته تلهف: «أو لم تفعل بعد يا ربيعة؟».

فقال ربيعة متظاهراً بالاعتذار: «عفوك يا سيدي، فإن أمر الغاضب فيه قسوة، وقد علمت أنك قد تعود إلى نفسك فتعذلها حين لا ينفع الندم، ولهذا آثرت أن أجرؤ على عصيانك، والأمر بعد في متناول يدك، فالفقتي في قيوده عند وادي «المقراة» وحوله حراس لا يفلت منهم حياً».

فأطرق الرجل، وقد بدا عليه الارتياح، وتنفس كمن انزاح عن كاهله عبء ثقيل، ثم رفع رأسه بعد حين وقال: «أحسننت يا ربيعة، فديتك بالأكرمين!».

ثم قام ووضع يده على كتفه، مظهرًا له شكره، وقال له: «ولكن بقاءه بين ظهرانينا بعد اليوم مفسدة لأمرنا».

فأسرع ربيعة مجيبًا: «له في بلاد أعمامه مندوحة». فكان هذا القول فتح لحجر بابًا مغلقًا. فالتفت مسرعًا إلى ربيعة وقال له: «جهزه اليوم، فلا أرينه مقيمًا في بني أسد بعد هذا».

وانصرف ربيعة مسرعًا لينفذ أمر مولاه، فما جاء الليل حتى كانت الإبل التي تحمل امرأ القيس مع جمع من أتباعه وعبيده تضرب في كبد الصحراء، ميممة شطر المشرق إلى بلاد عمه الملك سلمة بن الحارث، الذي كان يحكم قبائل قيس عيلان بن مضر في شرق نجد.

كانت شواغل حجر لا تترك له فراغًا للتفكير في أمر ولده، وكانت الحوادث تتوالى سرعًا، لا يخلو يوم بغير حدث جليل

منها؛ فكان كل همه أن يحتال في تصريف ما يعرض من أموره، وتلافى ما يتوقع من مخاوفه؛ فمضى عليه بعد سفر امرئ القيس عام بعد عام وهو لا يكاد يجد فراغاً من وقته لتذكر ابنه النازح، أو لمعرفة أخباره. ولم تكن لابنه أخبار مما يجروا أحد أن يحملها إليه. فقد ترددت أنباء سيرته في أركان بلاد العرب أنه أمير خليع، لا يبقى طويلاً في منزل، ولا يستقر في جوار أهل. كلما حل في قوم من قرابته أحدث فيهم حدثاً، فبرموا به وبرم بهم؛ فلم يبق معهم، وانصرف عنهم يلتمس أرضاً أخرى لعله يجد فيها إشباع نفسه ورى قلبه المتأجج، حتى انتهى أمره إلى أن صار خليل نؤبان العرب وصفى صعاليكهم يتنقلون معاً بين العيون والرياح لا يأكلون إلا من الصيد، ولا يقضون دهرهم إلا في القصف وشرب الخمر، ولا يتسلون إلا بمصاحبة القيان في مجالس صاخبة، طربها من غناء المزهري، وسمرها من نشيد أشعار امرئ القيس. لم تكن تلك الأخبار تبلغ حجراً، بل كانت تقف عند بابه يتلقفها أعداؤه فيتخذونها وسيلة للحط من شأنه والتحريض عليه وهو جاهل بها مشغول عنها.

وكان الاضطراب عند ذلك يشمل أنحاء نجد وأكناف العراق بعد أن مات العاهل العظيم قباز، واهتزت فارس لموته هزة عنيفة انتقلت إلى كل ما يليها من صحارى بلاد العرب؛ فقد كان قباز ملكاً ثائراً جريئاً قلب العادات، وعصف بالعقائد الموروثة، وأعلى سفلة

من قومه وأذل عليه. وكان من آثار جرأته أن نقل زعامة العرب من البيت القديم الذى عاشر بيت أجداده أباً بعد جد، وكان ساعدهم الأيمن فى الدفاع عن حدود فارس وحمايتها من غارات قبائل العرب، ذلك البيت الذى لا تخلو قصة عربية من ترديد أسماء ملوكه وأمرائه، بيت بنى نصر اللخمي، بيت النعمان والمنذر الذى انعقد له لواء القبائل من قحطان وإياد وأنمار. نقل قباز الزعامة من ذلك البيت العريق، فطرد الملك الكبير المنذر بن ماء السماء من مقر دولته بالحيرة، وجعل فى مكانه سليل بيت آخر ينافسه، بيت آكل المرار الكندى اليمنى؛ فاختار الأمير الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار ملك نجد، وعقد عليه تاج الحيرة.

وامتد سلطان الحارث الكندى فشمّل العراق وبلاد نجد جميعاً، ووزع أبنائه على قبائل نزار يحكمونها؛ فكان نصيب ابنه حجر بن الحارث حكم قبائل بنى أسد، وقبائل غطفان، وكان نصيب أبنائه الآخرين حكم ما بقى من قبائل كنانة وربيعة وأنمار وإياد. فلما مات قباز، هُدَّ بموته الركن القوى الذى كان دعامة ملك الحارث وبنيه، وأخذت الثورة الكامنة فى قلوب منافسى بيت الكندى تسرى وتضطرم فى الخفاء، يندلع منها بين حين وآخر لسان من اللهب ينذر دولة الحارث الكندى بالنضال المقبل العنيف.

وتولى ملك فارس بعد قباز الملك العظيم خسرو الأول، (أنوشروان). وكان أول هممه بعد توليه ملك آبائه أن يعيد إلى دولته ما اختل من نظامها، وأن يرد أمورها إلى ما كانت عليه قبل أيام أبيه. وكان (أنوشروان) داهية لا يجارى فى دهائه، وشديداً لا يبارى فى نضاله، فدىّ الدسائس، وجرّد الكتائب، وبعث الرسل، منى وأهدى، وتلف وتوعد، وأوقع وفتك، فإذا الدولة العظيمة تهتز كما يهتز البناء الشامخ فى الزلزال الهائل؛ وإذا بالحارث بن عمرو الكندى يحس بعرشه يرتج من تحته رجة بعد رجة وهو يحاول التماسك فلا يستطيع.

وكانت الأخبار المزعجة ترد إلى حجر بن الحارث وهو مقيم فى غربى أرض نجد بين بنى أسد، تنبئه بحرج موقف أبيه وما يحيط به من المتاعب، وتحمل إليه أنباء الثورات التى اندلعت فى القبائل التى يحكمها إخوته فى الأركان الأخرى من وديان نجد وفيافى اليمامة.

وحشد أبناء الحارث كل ما استطاعوا حشده من قبائل العرب لنصرة أبيهم الذى يستظلون فى الحكم بجاهه، وبذل حجر فى نصرة أبيه كل ما فى يده من أموال وقوة، لأنه شعر كما شعر إخوته أن زوال ملك أبيهم عن الحيرة يقوض أركان ملكهم المزعزع الذى لم يكن له دعامة غير القوة والرهبة والجبروت.

بعد هذه الأعوام كان حجر يجلس يوماً فى خيمة فسيحة فى أقصى أرض من بلاده، وقد ذهب إليها ليشرف على جمع الأموال

من بعض القبائل البعيدة، فإن السنين الغابرة علمته أن تلك القبائل تقاوم جباته وتعصى أوامره، وتمانع في دفع الأموال إلى أتباعه وعماله؛ فكان كلما أراد جباية المال من قبيلة ذهب إليها بنفسه لكي يشعرها قوة جنوده ورهبة سلطانه، فتبذل كارهة ما لا يستطاع أخذه منها عن رضى.

ودخل عليه ربيعة بن عمرو صاحب سره وهو جاهم الوجه متردد الخطى. فرفع حجر بصره إليه وأدرك من منظره أنه قادم بخبر مشئوم. فقد كان ربيعة وحده يجرؤ أن يحمل إليه الأنباء الصادقة. فقال حجر بعد أن أجلسه إلى جواره «لعل هؤلاء القوم قد صنعوا ما صنع سواهم من الوثوب والعصيان. لا يحزنك ذلك فإننا نقدر على أن ننزع منهم بالقسر ما لا يرضون ببذله طائعين».

فرفع ربيعة رأسه ببطء وقال بصوت ضعيف: «ليس ذلك ما جئت له».

فصمت حجر لحظة وقد أدرك أن فى الأمر خطورة غير ما حسب، ثم قال متكلفاً الهدوء: «فهل من جديد؟».

فأطرق الرجل برأسه متردداً ثم قال: «الحارث بن عمرو، أبوك الملك الحارث».

فوثب حجر من مجلسه وقال فى زعر «هل قتل؟».

فأسرع ربيعة مجيباً: «لا. لم يقتل، ولكنه هزم وأخرج من الحيرة».

فتنفس حجر وعاد إلى مجلسه مضطرباً وقال: «هل جاء بذلك رسول؟».

فقال ربيعة: «لا. ولكن سمعت ذلك من صديق كان في الحيرة منذ حين. وقد حمل النبا إلى هنا إذ عرف أننا بعيدون عن منازلنا».

فقال حجر متلهفاً: «وهل سمع الناس النبا؟».

قال ربيعة: «لا. فإن عيوننا المنبئين بين القبائل لم يحملوا إلى أن أحداً يتحدث بهذا الخبر».

فسكت حجر لحظة أخرى كأنه قد سُرى عنه ثم قال: «لا بد لنا من العودة إذا».

فهز ربيعة رأسه مصدقاً وقال: «إذا شئت اليوم، لأننى لا آمن بنى أسد فى غيبتنا وفيهم ذلك الثعبان الأسود عبيد بن الأبرص».

فصرَّ حجر بأسنانه غيظاً، وقال «فاليوم نرحل عائدين».

وخرج ربيعة ليأمر بالاستعداد للسفر، وليحاول التماس الأسباب التى يذيعها بين الناس تبريراً لذلك الرحيل السريع.

وبعد يومين من سير مجهد كادت الإبل تنقطع فيه بلغ حجر منزله فى ديار بنى أسد.

كانت عودة حجر فى جنوده وأعوانه غير منتظرة، فقد كان بنو أسد يظنون أنه يقضى زمناً طويلاً فى جباية الأموال من غطفان ومن بطون بنى أسد البعيدة عند حدود تهامة، وكانوا فوق ذلك يتوقعون أنه يجد هناك من المقاومة والعصيان مثل ما كان يجد فى

تلك الأعوام فى كل أنحاء ملكه. فلما عاد حجر إليهم سريعاً أخذتهم عودته على غرة، لأنهم كانوا يعدون العدة لثورة عارمة يزيلون بها عن كاهلهم ظلم ذلك الرجل العنيف الذى ثقلت وطأته عليهم.

كان شيوخ بنى أسد عند ذلك مجتمعين فى ناديتهم فى ليلة مظلمة من ليالى الصيف الحارة، وقد أوقفوا من حولهم حراساً خوف أن يندس بينهم أحد من أتباع حجر، وجعلوا يتشاورون فيما هم فاعلون للثوب والثورة قبل أن يعود إليهم ملكهم فى جيشه الفاتك. وكان معهم رجلان غريبان جاءا إليهم منذ يوم من الحيرة يحملان إليهم أنباء حوادثها الخطيرة، ونزلا ضيفين على رئيسهم عمرو بن مسعود.

وفيما هم جلوس يتشاورون فى أمرهم أقبل عليهم رجل مسرعاً فمنعه الحراس وجعلوا يشاحنونه حتى علت أصواتهم، فقام عمرو بن مسعود ليعرف سر الضجة، ثم عاد بعد لحظة إلى أصحابه وهو صامت مهموم، فجلس ملياً وعيون القوم ناظرة إليه، ثم قال لهم فى صوت ضعيف «لقد عاد حجر».

فأجابته أصوات فيها شىء من الذعر: «عاد حجر؟ متى؟». فأجاب ابن مسعود: «عاد الساعة بعد أن قتل رواحله من السير الحثيث».

فقال أحد الرجلين الغريبين: «إذاً لقد بلغه النبأ». فأجاب ابن مسعود مطرقاً: «لا ريب فى ذلك، وكأنى بكم ترجعون عما كنتم عازمين عليه».

فصاح رجل من الجلوس: «لا نرجع عن عزمنا وحق مناة!». وكان ذلك الصائح شاعر بنى أسد عبيد الأبرص. فسكت القوم حيناً، ثم عاد ابن مسعود إلى الكلام، فقال يخاطب الرجل: «ولكننا لا نستطيع يا عبيد».

فصاح عبيد غاضباً: «إننا لن نجد بعد اليوم فرصة أخرى...». وأراد أن يمضى فى قوله، فقاطعه شيخ من الجلوس قائلاً: «خفض صوتك يا عبيد... فلست اليوم تنشد شعراً».

ثم قام الشيخ فقال: «لقد علمتم أننا لا نقدر على حجر بغير نجدة من العرب، فإنه فى جنوده كندة وأعوان من كنانة ومن قيس، وأنتم تعرفون ما بيننا وبين بكر وتغلب من العداوة، فلن نجد منهم نصيراً عليه. ولسنا نتوقع أن تأتينا نجدة من المنذر قبل شهر من اليوم، فهذا ما أنبأنا به ضيفانا الكريمان. فأولى لنا أن ننتظر فرصة أخرى. فإن الإقدام على ما لا قبل لنا به يفسد علينا خطتنا ويبعد عنا قصدنا».

فسكت القوم ينتظرون جواب ابن مسعود على ما قاله الشيخ الحارث الكاهلى وتحرك عبيد فى مكانه ضجراً، ولكنه لم يقل كلمة. وبعد حين قال ابن مسعود: «الحق ما قاله أبو غالب فأولى بنا اليوم أن نصبر حتى...».

ولم يتم الرجل قوله إذ علا صوت ضحكة سخرية من أحد الجلوس، فالتفت الجمع كله إلى صاحبها، وقال ابن مسعود وفى صوته ألم وإنكار: «مم تسخر يا عبيد؟».

فقال عبيد وكان هو الضاحك الساخر: «أعجب لكم إذ تقولون  
نصبر وننتظر. أنسيتم أنكم قد بدأتم الوثوب بصاحبكم؟ أنسيتم أنكم  
قد عصيتم أمره في غيبته وضربتم جباته وأسلمت دماء رسله؟ أتظنون  
حجرًا يغفر لكم ذلك ولا يعاقبكم عليه؟ لكأنى به الآن قد عرف  
ما أحدثتم، وكأنى برسله الساعة تسعى في آثاركم وتشتد في طلبكم».

وما كاد عبيد يتم قوله حتى سمعت ضجة مقبلة من حوافر  
خيل وقعقة سلاح وأصوات مختلطة حانقة. فقام الجمع فزعين،  
وما كادوا يتبينون مبعث الضجة حتى أحاطت بهم جماعة في سيوف  
مشهورة، وتقدم رئيسهم قائلاً: «لا يتحركن أحدكم من مكانه».

وما هي إلا لحظات حتى كان شيوخ أسد يسيرون في قيودهم،  
يساقون والجنود تدفعهم من ورائهم دفعًا عنيفًا، حتى قذفوا بهم  
في خيام السجن وجعلوا عليها حراسًا من كندة يحيطون بها.

وقضى شيوخ بنى أسد تلك الليلة مع ضيفيهم الوافدين عليهم من  
الحيرة في سجنهم يذوقون صنوف العذاب من ضرب بالعصا ووخز  
بالرماح ووطء بالأقدام. وكان الجنود لا يخاطبونهم إلا بالسب  
والوعيد ولا يسمونهم إلا «عبيد العصا»، وهم يهوون عليهم  
بالضربات الموجعة ولا يبالون أين تصيب منهم.

فما أتى الصباح حتى كانوا بين قتيل من أثر الضرب العنيف  
وجريح مما أصابه من وخز السلاح. وكان الشيخ الحارث الكاهلي  
من قتلى تلك الليلة.

كان حجر فى خيمته فى ذلك الصباح لا يستقر فى مجلس بل يذرع القبة الفسيحة ذهاباً وجيئةً وهو مطرق مهموم. وكان وهو يخطو خطواته الواسعة السريعة يتكفأ كأنه ينحط من عل، ويزيد به الغضب أحياناً فيفوه بلفظ حانق ثم يعود إلى نفسه فيمسك ويستمر فى سيره مطرقاً.

واكتسى وجهه بلون قاتم من أثر الغضب، تزيده سواداً لحية سوداء كثة تحيط به، تتخللها خيوط من الشيب، وتبدو شعناء كأنها معرفة الأسد. وظهرت لمعة مخيفة فى عينيه المحمرتين، فإذا اتجه بهما إلى شخص برق فيه لا يطرف كأنه يهيم بالوثوب عليه. وكانت رعشة خفيفة تعترى شعر شاربه وهو بين حين وآخر يجذبه بعنف ثم يرسله فى اضطراب. ودخل عليه الخيمة وهو على هذه الحال ربعة بن عمرو فى عمامة خفيفة بيضاء وثوبين مخططين قد انتزر بأحدهما واشتمل بالآخر، فوقف حجر ونظر إليه وقال بلفظ سريع خاطف: «هل تحمّلوا؟».

فقال ربعة هادئاً: «نعم... وجئت مستأذنًا فى تسييرهم».

فقال حجر فى غيظ: «وتركت حراساً عند عمرو بن مسعود؟».

قال ربعة: «تركت حوله حراساً لا يوصل إليه من دونهم».

فقال حجر: «وذلك الثعبان عبيد؟».

قال ربعة: «لست أعبأ به. لكأنى به قائم عنك بعد حين

يتذلل ويتمرغ».

فصرّ حجر بأسنانه، وعاد إلى سيره السريع يخبط الأرض بقدميه  
ثائرًا، وقال من بين أسنانه: «لا رأيته إلا مضرّجًا في دمائه».  
ثم قال كأنه يخاطب نفسه: «لوددت أنهم جميعًا لحقوا بالحارث  
الكاهلي، فلم يبق منهم باق منذ هذه الليلة. لم يشف قلبي من  
هؤلاء... إنهم لا يزالون يسيرون على هذه الأرض وهم أحياء».  
ثم التفت فجأة إلى ربيعة وقال: «أما قلت إن الحارث الكاهلي  
قد مات؟».

فوجد ربيعة فرصة للقول فأجاب: «لم يكن الحارث شرهم.  
فقد علمت أنه كان يردهم عن الوثوب وينصحهم بلزوم الطاعة».  
فقال حجر وهو يضحك ضحكة مرة: «يردهم عن الوثوب؟  
إنما كان يستأنى بهم ريثما يتم لهم الاستعداد».  
فصمت ربيعة، وقد أدرك أن حجرًا أصاب الحق في قوله،  
واستمر حجر بعد حين فقال: «لقد بدا لي أن أجمهم السيف  
جميعًا فلا أدعهم يسيرون عنى وهم أحياء. فوحق يغوث ويعوق  
وكل أنصاب العرب ما لهؤلاء أمان بعد اليوم».  
فقال ربيعة متطلفًا: «لو أخذ الملوك قومهم على مثل هذا لما بقيت  
لهم رعية. وليت شعري ماذا أنت صانع غدًا بغيرهم إذا فعل  
فعلتهم؟ فليست غطفان بأهدأ منهم نفوسًا».  
فنظر حجر إليه نظرة مخيفة ثم قال: «لكأنى بك  
تهددنى بقومك؟».

فقال ربعة هادئاً: «لقد عرفت - أبيت اللعن - مبلغ وفائي لك وحرصى على تدعيم ملكك، فلست بالذى يهددك بقومه، ولن يكون من قومى إلا ما تحب ما بقيت فيهم، ولكنى أضرب لك الأمثال لعلى أبلغ من نصحيتى ما أود».

فمضى حجر فى سيره، ثم وقف بعد قليل ونظر إلى ربعة وقد خبا بعض هياجه وقال: «إذا فليسيروا اليوم عنى لا أراهم فى صباح ولا مساء، هؤلاء عبيد العصا».

فلم يعاود ربعة الكلام فى أمرهم، واكتفى بأن استأذن فى الخروج لتشجيع القوم والتثبت من كفاية حراستهم فى مسيرهم. وما هى إلا ساعة حتى كان شيوخ بنى أسد وزهرة شبابهم يسيرون فى قافلة عظيمة تسرع بهم إلى منقاهم الذى أمر الملك حجر أن ينفوا إليه فى صحارى تهامة.

\*\*\*